هوامش

تمرّ هذه الأيام ذكرى ميلاد المسرحي اللبناني المصري جورج أبيض. تجربة مُهمّة ومؤسّسة في المسرح العربي الحديث، ألهمت أجيالاً، كما ساهمت في صناعة جيل كامل

جورج ابيض حين كان نقيبا للممثلين (وكالة انباء الشرق الاوسط)

جورج أبيض
الهجرة من بيروت إلى المسرح

القاهرة ـ **محمد كريم**

عرف جورج أبيض طريقه إلى الفن مبكراً، وهو ما أثار حوله اتهامات عائلية وتهكمات اجتماعية شديدة، فقد كان في نظر أقاربه فتىً مفتوناً غير حميد السلوك؛ لأنه يحلق شاربه ويغطي وجهه بالأصباغ، ويشجع فتية الحي على الفساد حين كان يدعوهم إلى اعتلاء المسرح. ثم وصف بأنه مغامر أهوج، حين ترك مدينته بيروت على ظهر سفينة متجهة إلى الإسكندرية، حيث كانت فرق التمثيل الأجنبية تحيي مواسم التمثيل. ثم وصفوه بأنه متلاف حين باع ما ورثه عن أبيه في لبنان، وسافر إلى باريس سنة 1904 ليدرس فن التمثيل على أيدي أساتذته. يقول في مذكراته: «عندما تستمع والدتي إلى عزمي بيع حصتي من تركة والدي، تدق على صدرها بيدها وتقول لي: تبيع ميراثك من أجل أن تعمل مشخصاتي؟! إن شيئاً من هذا لن يكون... أما عمي فقال لي والشرر يتطاير من عينيه وشاربه الكث ينتفض في غضب: والله لو سافرت لسوف أقضي عليك! وكانت عبارة عمي تعني تهديداً لي بالقتل بالرصاص». ولد جورج إلياس أبيض في بيروت في 5 مايو/ أيار سنة 1880. لم يتلق تعليماً جامعياً، فقد حصل على دبلوم في التلغراف كي يحصل على وظيفة بالتلغراف في بيروت وعمره 19 سنة، لكنه سرعان ما تركها حين هاجر إلى الإسكندرية، وهناك شغل وظيفة ناظر محطة الرمل براتب شهري 14 جنيهاً. وقد كانت تلك المحطات حوادث عرضية في حياته حيث لم يغادره حلم التمثيل وهو الذي جاهد كثيراً من أجل تحقيق حلمه.

البعثة لفرنسا

من المشهور أن الخديوي عباس الثاني أوفد جورج أبيض إلى باريس لدراسة فن التمثيل على حسابه الخاص في بعثة رسمية، ومنحه راتباً شهرياً مقداره ثمانية جنيهات ذهبية، وذلك بعد أن شاهده يمثل رواية «برج إيفل» في الإسكندرية، وذلك وفق مذكرات لجورج أبيض التي انتشرت بين الباحثين. لكن تلميذه زكي طليمات يؤكد أن جورج سافر إلى فرنسا على نفقته الخاصة، وبعد مضي ثلاث سنوات التقى بالخديوي في السفارة التركية بباريس وألقى بين يديه بعضاً من مقطوعات ومشاهد تمثيلية؛ فسر لها الخديوي وأجرى له مرتباً شهرياً صغيراً حتى عاد إلى القاهرة. وقد ظل في فرنسا لمدة ست سنوات هي مدة بعثته.

التمثيل بالفرنسية

تحكي بعض الدراسات الخاصة بالمسرح العربي أنه بعد عودة جورج أبيض من فرنسا، كان يقدم على فترات متقطعة مسرحيات باللغة الفرنسية، وأن الزعيم سعد زغلول، وكان وزيراً للمعارف آنذاك، طلب منه أن يعنى باللغة العربية، فلبى جورج طلبه وألّف فرقة ضم إليها نخبة من الشباب المثقفين الهواة وبعض الممثلين المحترفين القدامى، واستهلت هذه الفرقة نشاطها بتمثيل مسرحية شعرية من فصل واحد بعنوان «جريح بيروت» في 19 مارس/ آذار 1912.

غير أن هذه الفكرة الراسخة في كتابات الباحثين تحتاج إلى مراجعة، حيث ثبت أن جورج أبيض كان في فترة دراسته بباريس يقدم مسرحيات باللغة العربية. منها مسرحية نشرت صحيفة le matin الفرنسية إعلاناً لها في 10 مارس/ آذار 1910، وقبل وصول جورج إلى مصر. تقول ابنته السيدة سعاد أبيض: «إن هدف جورج أبيض من التمثيل بالفرنسية كان عرض نماذج من المسرحيات الرفيعة على المتفرجين المصريين، عن طريق ممثلين راسخين في فنهم، وذلك لكي يقتنع الرأي العام المصري بأن التمثيل فن رفيع، وأن له أصولاً وقواعد، تخدمها مواهب قوية يمكن أن تحظى بالإعجاب».

باختصار

كان لجورج أبيض فضل قيام عشر جمعيات مسرحية، كما تتلمذ على يديه عدد كبير من رواد المسرح المصري، مثل نجيب الريحاني، ويوسف وهبي

■■■

تأثر جورج أبيض بأستاذه الفرنسي سيلفان الذي كان يعد آخر كاهن للرومانسية في فرنسا، وهذا هو السر في تأثر مسرح أبيض بالرومانسية

■■■

كان ما يقدمه جورج طريفاً وجديداً، لكنه لا يتجاوب في دسامته مع مزاج الكثرة الغالبة من الجمهور، كما أن الجديد لا يحتفظ بجدته ما لم يتطور

وكان جورج أبيض متمكناً في اللغة العربية وقواعدها وآدابها ومنكباً على مصادرها ومراجعها، وكان يعوّل عليه في تقويم اللحن الذي يصدر من الممثلين. من أوائل الأعمال التي قدمتها فرقة جورج أبيض بالفرنسية لدى عودتها إلى القاهرة: «لويس الحادي عشر» لكازمير دي لارفني و«طرطوف» لموليير. بعدها اتجهت الفرقة إلى مجموعة من الأعمال العالمية المترجمة مثل «أوديب الملك» لسوفكليس و«لويس الحادي عشر» لكازمير دي لارفني و«عطيل» لشكسبير، وقد اعتمد في تلك الفترة على مجموعة من المترجمين المبدعين مثل فرح أنطون وإلياس فياض وخليل مطران. كما اعتمد على عزيز عيد في إخراج تلك المسرحيات حيث اكتفى بدوره ممثلاً ورئيساً للفرقة. أيضاً استعان بفرقة موسيقية وفرقة راقصة. وخلال عشرين عاماً قدمت فرقته أكثر من 130 مسرحية مترجمة ومؤلفة. في 1922 قامت الفرقة برحلتها الأولى إلى الدول العربية، فزارت فلسطين ولبنان والعراق وتونس والجزائر ومراكش.

وفي فترة لاحقة انضم إلى فرقة الشيخ سلامة حجازي، وصارت الفرقة تعرف باسم «أبيض وحجازي».

كان لجورج أبيض فضل قيام عشر جمعيات مسرحية، كما تتلمذ على يديه عدد كبير من رواد المسرح المصري، مثل نجيب الريحاني، ويوسف وهبي، وزكي طليمات، وروز اليوسف، وسليمان نجيب، وحسين رياض، وعباس فارس، وبشارة واكيم وغيرهم. كما يعود له الفضل في تقديم فنان الشعب سيد درويش للناس عبر فرقته بالقاهرة. وهو بجهوده، وفقاً للنقاد، يعدّ الرائد الأول للمسرح المصري والعربي، من حيث العمق المسرحي والأداء الراقي.

منهجه في الفن

تأثر جورج أبيض بأستاذه الفرنسي سيلفان الذي كان يعد آخر كاهن للرومانسية في فرنسا، وهذا هو السر في تأثر مسرح جورج أبيض بالرومانسية بالرغم من أن الواقعية كانت على أشدها أثناء دراسته للفن في باريس. ودعمت ذلك الاتجاه شخصيته الرومانسية، كما أن الثقافة العربية كانت لا تزال آنذاك ميالة إلى تلك النزعة الرومانسية، ومن هنا عولجت المسرحيات التاريخية التي قدمها معالجة رومانسية مثل: الملك لهو وعنتر، وصلاح الدين، والحاكم بأمر الله، وسيرانو دي برجراك وغيرها.

ثلاث جبهات

يذكر زكي طليمات، الذي أطلق عليه لقب «عاهل المسرح العربي»، أنه كان على جورج لتبقى رايته عالية أن يحارب في ثلاث جبهات: أن يحارب أمية الذوق وأمية الثقافة، وأن يحارب المسرح الغنائي القديم، وأن يحارب المسرح الهزلي الذي قام في غضون الحرب العالمية الأولى.

كان ما يقدمه جورج طريفاً وجديداً، لكنه لا يتجاوب في دسامته مع مزاج الكثرة الغالبة من الجمهور، كما أن الجديد لا يحتفظ بجدته ما لم يتطور. أما المسرح الغنائي، وعلى رأسه سلامة حجازي ومنيرة المهدية؛ فكان يجتذب الجمهور في يسر لأنه يروقه التمثيل المغلف بالغناء والعزف، في حين كان المسرح الهزلي وعلى رأسه نجيب الريحاني يقدم صوراً من الحياة المحلية، ويجمع إلى الغناء الرقص، وكل ما يخاطب الجانب الهابط في النفوس. كان من رواد السينما، إذ قدّم أول فيلم غنائي مصري وهو فيلم أنشودة الفؤاد عام 1932. إضافة إلى مجموعة أخرى من الأفلام التي شارك فيها مثل: أرض النيل 1946، وأنا الشرق 1956.

في 1943 انتخب ليكون أول نقيب للممثلين في مصر، وحين افتتح معهد الفنون المسرحية ظل يدرّس به إلى أن توفي في 22 مايو/ أيار 1959.

وأخيراً

«بين السما والأرض»

معن البياري

كان نجيب محفوظ يقول إنه لا علاقة له بالأفلام والمسلسلات والمسرحيات المأخوذة من أعماله، فتلك محسوبةٌ على مخرجيها، وهو مسؤولٌ عن قصصه وروياته كما نشرها. ولكن ماذا عن مسلسلٍ تلفزيوني مُنتج في العام 2021 مستوحى من قصةٍ كتبها محفوظ، لم ينشرها في أيٍّ من مجموعاته القصصية (عددها 19)، ولا في أي صحيفة، وإنما كتبها لفيلمٍ أنتج في 1959، فلم يقرأها سوى صنّاع الفيلم، واسمه «بين السماء والأرض»، وخصوصا كاتبي السيناريو، صلاح أبو سيف والسيد بدير، والأخير كاتب الحوار، وأبو سيف هو المخرج؟ لا يكفي أن يُقال إنه لا علاقة لمحفوظ بالمسلسل الذي انتهى، أخيرا، بثّ حلقاته الـ 15 (هذا جيد بالمناسبة) في موسم رمضان الحالي «بين السما والأرض» (الهمزة حاضرة في الفيلم وغائبة في المسلسل). ببساطة، لأن مخرجه، مادو العدل، وكاتب السيناريو والحوار، إسلام حافظ، لم يطّلعا على القصة غير الموجودة، (هذا مرجّح إلى حد التأكيد)، وإنما شاهدا فيلم أبو سيف، واستوحيا منه مسلسلهما، بعد أن أحدثا تغييراتٍ أكثر من جوهرية، ونجحا بشكل ممتاز في مواضع فيه، وأخفقا بشكل مريع في أخرى. والقول هنا إنهما لم يكونا أوفياء مع صلاح أبو سيف، عندما غيبا اسمه، واسم فيلمه الباقي جذّابا منذ أزيد من 60 عاما، وكان وفاؤهما للأديب العالمي نجيب محفوظ (حَرِصا على وصفه في التتر هكذا) استخداميا.

كان في الوُسع أن يتسامح واحدنا مع هذه الملاحظة، غير الشكلية (؟)، لو أن المسلسل حافظ على شيءٍ من رؤية محفوظ في قصته غير المقروءة. ومع التسليم بحقّ صنّاعه، وهو متقن في تتابع محكياته، وفي أداء عددٍ طيّب من الممثلين فيه (محمد ثروت خصوصا)، في أن ينتقوا ما يشاءون من قصة فيلمٍ عتيق، ويطبخوا منها وحواليها الفكرة التي يريدون. ولكن يبقى هنا مطلبُنا إياه، نحن النظّارة، عدم استعباطنا، أي أن تحمل الوقائع المتتابعة، ولو أريد أن تتّصف بالمفارقة، مقادير من الإقناع، أقلّه من أجل أن يتّسق المسلسل مع مُراده، ومضامينه، وقبل ذلك وبعده، مع جمال الحكاية ودراميّتها وإيقاع مسار حوادثها، فلا يُعقل أبدا أن شركة صيانة مصاعد يتم الاستنجاد بها، في زمن الهواتف النقالة، لإرسال ما يلزم لإصلاح المصعد العالق في العمارة (وفيه 11 شخصا)، تبعثها مع شخص أبله، فاقد الإحساس بالمسؤولية إلى درجة كاريكاتوريةً، بدا التصنّع فيها مفرطا، ليتم بهذا تسويغ مضي ساعات ورطة العالقين في المصعد، فلا تتم نجاتهم.

النهاية السعيدة في الفيلم طبيعية، بمجيء الدفاع المدني ومعالجة الحالة، وإنقاذ العالقين في المصعد. كما أن «الآكشن» فيه، حيث الاشتباك بين الشرطة وعصابة لصوص أرادوا سرقة خزنة شركة في العمارة بدا في محلّه. أما أحاديث الذين حُشروا في المصعد، عند تعطّله، ولا يعرف بعضهم بعضا، فأعطت التلقائية فيها، وكذا المفارقات والقفشات الطريفة، الحسّ الفكاهي للفيلم، متوازيا مع مضمون اجتماعي، عندما أريد أن يكون بين العالقين لص صغير (عبد المنعم مدبولي) وأرستقراطي متكبّر (عبد السلام النابلسي) وزعيم عصابة (محمود المليجي) وممثلة (هند رستم) وامرأة حامل (نعيمة وصفي) وهارب من مستشفى المجانين (عبد المنعم إبراهيم) و... فإنما للإحالة إلى

> مسلسل استغفل نجيب محفوظ وصلاح أبو سيف، في قصة تفجير إسلامي عمارةً لأن ابنة أخته تزوّجت «كافراً»

مفارقاتٍ اجتماعيةٍ وطبقية. وبدا الفيلم واقعيا، فلم يقع في مبالغاتٍ ومحمولاتٍ لم يكن ممكنا أن يحملها. أما مسلسل مادو العدل، فمُراده أن يتّسق مع موضة الانشغال بإرهاب الإسلاميين، القضية التي يكاد لم يخرج عنها أي مسلسل مصري في موسم الدراما الراهن. تمّ تعطّل المصعد بتدبير عصابة تتبع تاجرا متدينا ملتحيا متشدّدا، تخطيطا منه لتفجيرٍ في حفل عيد ميلاد في منزل أسرة مسيحية في العمارة، ليموت فيه الأستاذ الجامعي الكاتب العلماني المتنور (هاني سلامة)، لأنه تزوّج من ابنة أخت هذا التاجر. تنفجر القنبلة في مختتم المسلسل، وتحذّر الشرطة السكان منها فينجو كثيرون، ليس منهم ضابط الشرطة، ولا العالقون في المصعد الذي أنجبت الحامل فيه ولدها (نورهان)، ومات الرجل الطيب المبدئي (أحمد بدير).

احتفى فيلم صلاح أبو سيف بالحياة، بالفكاهة، بالنجاة من الموت والسرقة، ولم «يوفق» حبيب وحبيبته في محاولتهما الانتحار. أما مسلسل «بين السما والأرض» فقد أجاد، نسبيا، في إقامة تقاطعات مركبة بين قصص العالقين في المصعد، وفي تحياته في كل حلقة إلى موسيقى بليغ حمدي، لكنه استعبط الجمهور، واستغفل نجيب محفوظ وصلاح أبو سيف، في قصة تفجير إسلامي عمارةً لأن ابنة أخته تزوّجت «كافرا».

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**